دور مصر الحضارى فى هرر وملحقاتها

١٨٧٥ ـ ١٨٨٤

د٠ محمد المهدى صديق

كلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط

لمصر التزام تاريخى تجاه الصومال منذ فجر التاريخ ، ولازال لمصر هذه القدم الراسخة فى ربوع القارة الافريقية حتى وقتنا الحالى• اذ أن مصر تلعب دور ناشر الحضارة فى تلك القارة بحكم أنها صاحبة أعرق وأقدم حضارة أفريقية •

ومن هذا المنطلق وقع اختيارى على هرر ، كبلد من بلدان القـــرن الافريقى الذى له ارتباط أزلى مع مصر •

وبالطبع حددت لبحثى فترة زمنية محددة ، لا تزيد على عقد من الزمان ، وقعت فيه هرر فى ظل السيادة المصرية فى عهد اسماعيل ، ونتبين من تلك الحقبة القصيرة الأجل ، الجليلة الأثر ، مدى ما بذلته مصر من جهود فى سبيل تحضير وتمدين هذا البلد ، وانعكس أثر هذه السياسة بشكل واضح وملموس ، فيما استحدثته الادارة المصرية من متغيرات حضارية واجتماعية شهدها أهل هرر[١] •

وأول نقاط مبحثى هو معالجة سياسة مصر العربية والاسلامية ازاء هرر فى عهد اسماعيل ، وبالطبع لم ينهج هذا النهج من فراغ ، حيث

---

(1) Earl of Cromer. Modern Egypt. pp. 272—77.

كانت هناك علاقات ثقافية بين الازهر الشريف وهرر منذ فترة مبكرة .

وعلى العموم تبلورت سياسة مصر العربية فى شرق القارة ، واتضحت معالمها فى عهد اسماعيل ، اذ أنه بعد أن اشترى الخديوى زيلع وملحقاتها من تركيا نظير مبلغ سنوى يدفع لها[٢] أخذ يتطلع الى فتح الأقاليم المجاورة ، وعلى الأخص هرر .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، أخذ يتعرف الطرق المؤدية اليها ، ويستطلع أحوال أهلها ،وأرسل حملة عسكرية لفتحها فى سبتمبر ١٨٧٥ ، وأعلنت الحملة ضمها للحكومة المصرية[٣] وأظهر الحكم المصرى مقدرة فائقة فى ادارة هرر ، فاتبعت سياسة اللين والرفق بالأهالى حتى مالوا الى الحكم المصرى .

وأخذت تدرب الأهالى على الأعمال العسكرية ، وتشجعهم على استثمار موارد بلادهم ، والاشتغال بالتجارة والزراعة . واعتبر بحق عصر اسماعيل من أزهى العصور التى شهدتها هرر طوال تاريخها . اذ قويت فيها عملية الاستعراب ، وتدفقت فيها الدماء العربية ، ووضحت المؤثرات اللغوية مع تزايد نشاط العناصر العربية . ولولا التدخل المصرى فى هرر وغيرها من المدن المطلة على الساحل الصومالى ، لابتلعتها الحبشة ، اذ كانت تنظر باستمرار بعين الريبة والشك والجزع والخوف ازاء التوسع المصرى فى هذه الجهات فى عهد اسماعيل[٤] اذ أصبح لمصر سياسة افريقية واضحة المعالم .

---

(٢) محمد صبرى (د) مصر فى أفريقيا الشرقية هرر وزيلع وبربرة ص ص ١٤ــ١٥ .

(٣) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ص ١٥٩ .

(٤) السيد يوسف نصر (د) الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى أفريقيا فى القرن ١٩ ص ص ٧ــ١٣ .

وظلت هرر امارة اسلامية حتى ضمتها اليها الامبراطورية المصرية الافريقية ، عندما وقع سلطان هرر على وثيقة يعلن فيها انضمامه للحكم المصرى • ونستطيع هنا أن نبين أن الحكم المصرى فى هرر حفظ لها عروبتها ووجهها الاسلامى ، وأبعد عنها الخطر الحبشى ، ولأدل على ذلك ، أنه بمجرد أول فرصة سنحت للحبشة ، بعد انهيار الامبراطورية المصرية الافريقية ، فان الحبشة لم تتردد لحظة عن الاستيلاء على هرر سنة ١٨٨٧[٥] •

وللاستدلال على أن الحكم المصرى جعل هرر تنعم بنوع من الاستقرار ساعدها على الازدهار ، فلابد أن نلقى بعض الضوء على الصراع الذى دام طويلا بين الولايات الاسلامية والولايات المسيحية فى الحبشة ، وكيف أن هرر كانت من بين الولايات الاسلامية التى عانت طويلا من جراء ذلك الصراع ، ولذا فليس بمستغرب أن تجد أهالى هرر أول من رحب بقدوم المصريين معلنين تأييدهم للحكم المصرى الجديد[٦] •

فالناظر الى الحبشة من ناحية التضاريس ، يجد أنها تتكون من عدة ولايات ، بعضها ساحلى يقع على ساحل البحر الأحمر أو من ولايات سهلية تتكون من السهول ، والبعض الآخر يقع فى الداخل عبارة عن ولايات جبلية[٧] •

وعندما نذكر الحبشة ، نقصد بها الحبشة بمعناها الواسع ، أى الأراضى التى تكون الولايا تالواقعة بين السودان والبحر الأحمر • وبعض أجزائها الآن خارج حدود الحبشة ، يسود بعض هذه الولايات الدين الاسلامى وعلى رأسها هرر ، ويغلب على البعض الآخر طابع المسيحية •

---

(٥) زاهر رياض (د) مصر وافريقية ص ص ١٥١ــ١٦٠ .

(٦) زاهر رياض (د) الاستعمار الأوربى لافريقيا ص ٨٨ •

(7) Bennett, E. N. The Question of The Sudan. pp. 3--11.

بصفة عامة يمكن أن نقول أن الولايات الاسلامية هى التى تقع غرب ساحل البحر الأحمر مباشرة وتلك التى تقع خلفه فى السهول أيضا ، بينما تنعزل الولايات المسيحية فى المنطقة الداخلية الجبلية .

وعلى العموم ، لكل بلد من بلدان الفريقين ميزاته . فمميزات الولايات الاسلامية واضحة ، خصوصا من الناحية الاقتصادية ، فقد وهبها وقوعها على الساحل أو بالقرب منه ، ميزة التحكم فى منافذ التجارة ، وأصبح لزاما على أى تجارة تعبر من الداخل الى الساحل ، أن تمر على هذه الولايات الاسلامية ، كما توجد فى البلاد السهلية كذلك زراعات هامة ، اذ تتمتع هرر على سبيل المثال بمحاصيل نقدية ضخمة وفى مقدمتها البن ، وخلاصة القول ، تتمتع الولايات الاسلامية بميزة التفوق من الناحية الاقتصادية . فى حين تتميز الولايات المسيحية بميزة استراتيجية وهى ميزة الارتفاع نظرا لطبيعتها الجبلية التى جعلت مهمة الوصول اليها أمرا صعبا وبالتالى تجعل من التغلب عليها شيئا مستعصيا فضلا عن أن هذا الارتفاع يعطيها ميزة التسلط على الولايات المنخفضة .وقد أثبت ذلك حوادث التاريخ المختلفة(٨) .

ومن هذا المنطلق أرادت الحبشة أن تحقق نصرا حاسما على الولايات الاسلامية ، فانتهزت فرصة نشوب الحروب الصليبية ، فحاولت أن تلعب دورا فى الصراع على بلاد الشام ومصر . اذ أرادت الحبشة وأراد معها الأوربيون أن يفتحوا ميدانا آخر للصراع بين الاسلام والمسيحية فى الحبشة ، وبذلك تتشتت جهود مصر وتنشغل بالصراع من ناحية الجنوب فى أراضى الحبشة لأنها حصن المسيحية فى تلك القارة المظلمة . اذ ثبت للاوربيين أن مصر البلد الاسلامى التى استطاعت الدفاع عن الاسلام فى الشرق الاسلامى أيام الصليبيين والمغول على حد سواء ، ولذا فانه كان يهم الأوربيون بصفة عامة أن يؤلبوا الحبشة ضد

(٨) حسن أحمد محمود (د) الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ص ٣٧٩ — ٣٨٩ .

مصر خاصة وأن العلاقات المصرية الحبشية قديمة ويغلب عليها الطابع الروحى • اذ أن المسيحية فى الحبشة مرتبطة بالكنيسة المصرية فعندما كان يخلو منصب رئيس الكنيسة الحبشية أى مطران الحبشة ، كان النجاشى يرسل كتابا الى سلطان مصر المسلم يلتمس فيه اجراء اتصال بالبطريرك من أجل تعيين مطران للاحباش ، وبالطبع أوجد هذا صلة روحية بين الأقباط فى مصر والأحباش المسيحيين ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل انه عندما كان يحدث اضطهاد للمسيحيين فى مصر فى عهد بعض سلاطين المماليك ، كان النجاشى يحتج ويهدد مصر[٩] •

ومن أهم وسائل التهديد التى كان النجاشى يلتجىء اليها هو أنه كان يعلن عن عزمه فى تحويل مجرى النيل بحيث يبطل ارسال مياه النهر الى مصر ، فيحل بها القحط والمجاعة ، وتصبح صحراء جرداء • وطبيعيا أن ينعكس صدى تلك العلاقات على الولايات الاسلامية التى تكاد تحيط بالحبشة والتى كان النجاشى يعتبرها تابعة له أو ينبغى أن تكون تابعة له • بينما كانت تلك الولايات الاسلامية — وفى مقدمة صفوفها هرر — تعتبر نفسها مستقلة • لم يكن هذا الصراع مجرد صراع دينى فقط وانما كان صراعا اقتصاديا أيضا • اذ كانت الولايات المسيحية تحس بأنها تختنق ، لأن طريقها الى البحر يتحكم فيه المسلمون ، أرادت الحبشة أن تفك هذا القيد ، بربط نفسها بفلك الثورة الاقتصادية الكبيرة التى حدثت فى أواخر القرن ١٥ والناجمة عن كشف طريق رأس الرجاء الصالح • فحاولت الاستفادة من ذلك الصراع الكبير الذى تقوده البرتغال فى مياه البحار الشرقية ، لتحقق من وراء ذلك نصرا حاسما على الامارات الاسلامية المحيطة بها[١٠] •

وبالفعل أرسل النجاشى بعثة الى البرتغال ، وأرسلت البرتغال بعثة الى النجاشى ، ووصل الأمر بالبرتغال عندما أرسلت قوادها الى البحار

---

(٩) زاهر رياض (د) مصر وأفريقيا ص ص ١٥٢—١٥٨ •

(١٠) جلال يحيى (د) مصر الحديثة ص ص ٥٥—٥٩ •

الشرقية ، أن زودتهم بتعليمات مؤداها ضرورة الاتصال بالنجاشي من أجل مساعدته فى موقفه ضد المسلمين وعلى وجه الخصوص مسلمى هرر ، وكذلك دراسة الموقف فى هذا الجزء من أفريقية المحيط بالبحر الأحمر والمطل على مياه المحيط الهندى ، وهو موقع هام جدا فى دائرة النزاع البرتغالى الاسلامى الكبير .

وفى هذه الأثناء كانت قد انتعشت هرر كقوة اسلامية على قدم وساق ضد الحبشة بفضل ظهور أحد أمرائها المجاهدين أحمد بن ابراهيم جرى .وحقق انتصارات كثيرة على الأحباش الى أن استطاعوا فى النهاية أن يلحقوا به هزيمة بمساعدة البرتغاليين ، واستشهد حوالى عام ١٥٤٢[١١] .

ومن المعروف أن مدينة هرر قد دخلها الاسلام فى القرون الأولى للهجرة ، وظهرت هرر فى القرن الثالث عشر الميلادى كأقوى مركز اسلامى فى شرق أفريقيا ومركز للفقه والتعاليم الاسلامية فى الصومال وخارجه وقد امتد نشاطها فى الدعوة خارج حدود الصومال الى ما يبلغ نحوا من ٦٥٪ من مساحة الحبشة كلها وبها مؤلفات ومخطوطات نادرة وعرفت بانها المنارة الاسلامية للصومال وجيرانها من دول شرق أفريقيا[١٢] .

وعلى أى حال ، فقد أدى تدخل البرتغال فى الحبشة الى زيادة اهتمام العثمانيين عقب فتحهم لمصر بمنطقة البحر الأحمر واليمن والبحار الشرقية عامة لمدافعة البرتغاليين[١٣] . وفعلا استولى العثمانيون على سواكن

---

(١١) عبد الرحمن النجار : الاسلام فى الصومال ص ٦٥ .
عنايات الطحاوى (د) افريقيا الاسلامية ص ص ١٩٨ــ٢٠٠ .

(12) Trimingham. Islam In Ethiopia. p. 209
Oliver Roland and Mathew Gervase. History of East Africa. vol. 1. pp. 99—101.

(13) Denis De Rivoyre. Mer Rouge et Abyssinie pp. 101—166.

عام ١٥٢٠ أهم ميناء للتجارة الافريقية ، ثم استولوا على زيلع ومصوع والمراكز الأخرى الصغرى •

ومما يلفت النظر أن استيلاء العثمانيين على هذه المراكز الاسلامية قد تم بدون حرب ، لأن المسلمين فى هذه الجهات رحبوا بالقـــوة العثمانية ، كقوة اسلامية فتية ، حققت انتصـــارات هائلة على الدولة البيزنطية المسيحية (الرومانية الشرقية) هذه الأعمال المجيدة هلل لها المسلمون فى هرر والحبشة • اذ أوجدت للعثمانيين دعاية طيبة فى نفوس هؤلاء المسلمين الذين كانوا فى صراع عنيف ضد النجاشى • ومما هو جدير بالملاحظة أن اهتمام الأتراك العثمانيين كان مركزا على الساحل ليعطيهم قواعد هامة فى هذا الصراع الكبير ، فضلا عن الموارد الهامة التى تتمتع بها الموانىء الساحلية (ايرادات الجمارك) ثم تعرضـــت أفريقيا لموجة استعمارية شرسة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

ومن الجدير بالملاحظة أنه فى خلال الفترة التى تطلعت فيها مصر الى مد ادارتها الى ساحل الصومال وهرر فى عصر اسماعيل — كانت أوربا قد وضعت يدها على كل مناطق الساحل الافريقى فى الجنوب والغرب ، وفى جزء كبير من شرق أفريقيا ولم يبق أمام دول أوربا الاستعمارية الا ساحل البحر الأحمر الغربى والجزء الأعلى من ساحل أفريقيا • وكانت مناطق الصومال وهرر من المناطق التى يهم مصر ألا يصل اليها النفوذ الأوربى لأنها متصلة بحوض النيل • ووجود جســـم أجنبى غريب عنها سيؤدى الى تهديد سلامة وادى النيل • فضلا عن أن هذا الجزء — هو الجزء العربى الاسلامى من أفريقية الشرقية أو على حد تشبيه بعض المؤرخين — شبه الجزيرة العربية على ساحل افريقية الشرقى[١٤] وعلى هذا الأساس حرصت مصر على ابعاد هذه المناطق

(١٤) محمد المعتصم سيد (د) دول اسلامية فى شرق أفريقيا « هرر والصومال » ص ٦٢ .

عن النفوذ الأجنبى • وكان أسلم طريق لذلك وضع مناطق الصومال وهرر تحت الادارة المصرية • فقد رأت مصر أن احتلال انجلترا لعدن يعطيها ميزة التعامل مع رؤساء الحبشة أو الاتجار معهم أو الحصول على مزايا استراتيجية فى بلادهم ، باتخاذ بلادهم المرتفعة مكانا تشرف منه على وادى النيل •ولقد تأكد ذلك لمصر ، بعد استيلاء الانجليز على جزيرة باب المتحكمة فى مدخل قبة الخراب ، ثم على جزيرة ايفات المشرفة على ميناء زيلع أو على جزر موسى المتحكمة فى طريق تجارة القوافل المتوغل مع وادى الحواش فى بلاد الحبشة ، كما كان لفرنسا أيضا مطامع فى هذه الجهات •

وقد علل البعض اتجاه مصر فى سياستها الخارجية الى أفريقيا والى ساحل الصومال وهرر ، يعنى أنها تركت الاتجاه العربى كلية ، لكن هذا الاتجاه الجديد فى السياسة المصرية ، كان يخضع لاعتبارات سياسية ، فقد كان مصر فى سياستها الافريقية تتجه اتجاها عربيا صرفا ، هذا الاتجاه يتمثل فى اهتمام مصر بالسودان والصومال العربى وهـــرر الاسلامية ، وكل ما حدث هو أن مصر حولت اتجاهها العربى جغرافيا من آسيا الى افريقيا ، فبدلا من أن يكون اتجاها عربيا أسيويا ، أصبح اتجاها عربيا أفريقيا • وكون مصر تلتزم بهذا النهج الافريقى ، فهو نهج دفعها اليه قدرها ، اذ كان لمصر علاقات بدول وادى النيـــــل والصومال منذ فجر التاريخ وتعتبر نفسها صاحبة أقدم وأعرق حضارة ومسئولة عن توصيل أسباب تلك الحضارة الى البلدان الافريقية التى تربطها معها علاقات اقتصادية وثقافية • وهكذا عندما تتجه مصر الى هذه المناطق الافريقية للحفاظ على وجهها العربى والاسلامى فى عهد اسماعيل ، فهو اتجاه من منطلق حضارى ومصيرى • وكان اسماعيل فى خطاباته المرسلة الى حكامه فى هرر وغيرها من الفتوحات الافريقية ، يذكرهم بالتزام مصر الدينى نحوها بالرغم مما كانت تعانيه مصر من ضائقة مالية •

وكان محمد على من قبل من الحنكة السياسية ، وبعد النظر ، أنه لم يرسل الى تلك الجهات الافريقية الحملات العسكرية المجردة ، بل عمل على أن يطعمها باستمرار بخيرة علماء المسلمين ، حتى يؤتى الفتح ثماره المرجوة ، فعمل على أن يكون الوافد الاسلامى قويا ، فمنذ أن أرسل محمد على حملاته العسكرية لفتح السودان ، أرسل ثلاثة من العلماء المسلمين يدعون الأهالى للانخراط سليما ، فى ظل الحكم المصرى صونا لارواحهم ، وحقنا من اراقة الدماء ، وكان هؤلاء العلماء الثلاثة هم الشيخ محمد أفندى ، قاضى أسيوط ، الحنفى المذهب ، والشيخ أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى المالكى ، وهؤلاء العلماء الثلاثة يمثلون المذاهب الاسلامية الأوسع انتشارا فى ممتلكات عصر الافريقية(١٥) .

اذا فواجب مصر تجاه هرر فى عصر اسماعيل كان نابعا من خلال التزام عربى اسلامى . ولقد شهدت هرر بالفعل تغيرات اجتماعية وحضارية سنحاول تناولها فى الموضوعات الرئيسية التالية :

أولا ــ أسلوب الحكم المصرى فى هرر وملحقاتها :

لما افتتحت الحكومة المصرية اقليم هرر ، وجدت أنه من الأنسب اعادة تنظيم ادارة الاقليم سعيا وراء تقدمه ، ورفاهية أهله ، وامتد أشراف الاقليم على تاجورة وزيلع وبربرة التى صارت تلقب بلقب ملحقا تهرر وأنيط أمر الاشراف على هرر وملحقاتها للقائد المصرى الذى افتتحها ، وكان هذا القائد هو رءوف باشا بعد أن أنعم عليه الخديو اسماعيل بلقب فريق . وكان يساعده فى أمر تصريف هذه الاقاليم الواسعة الأرجاء ، جماعة من المحافظين والحكام الذين يختارون فى الغالب من أبناء البلاد الاصليين . وعموما صدرت أوامر تعيينات حكمدارية هرر على الوجه التالى :

---

(١٥) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ١٣٥ .

١ — رءوف باشا حكمدار لهرر وملحقاتها (تاجورة وزيلع وبربرة) .

٢ — جمالى باشا محافظ بربرة (مؤقت غير مرضى عنه) .

٣ — أبو بكر شحيم (الصومالى) محافظ زيلع .

٤ — محمد بن عبد الشكور الهررى ، محافظ هرر .

٥ — عبد الوهاب بك ، وهو مدير بنى سويف وكيلا لمحافظة هرر .
وكان عبد الوهاب بك هذا ينوب عن رءوف باشا فى تسيير دولاب عمل هذه الولايات الاسلامية حال غيابه ، كما كان له حق رئاسة مجلس الحكمدارية فى تلك الأثناء(١٦) . وكان يراعى فى اختيار المحافظين بالطبع أن يكونوا موالين للحكم المصرى ، وأن يكونوا محمودى السيرة وأن يتمتعوا كذلك بالقدر اللازم على تصريف الأمور .

فمثلا وافقت الحكومة المصرية على اعادة تعيين محمد بن عبد الشكور سلطان هرر السابق ، الظالم المستبد ليكون محافظا عليها مرة أخرى فى ظل الحكم المصرى ، وذلك بعد أن أعلن ولاءه للحكم المصرى ، ولم تكتف تلك الحكومة منه بذلك ، بعد أن تعهد لها على تخليه عن قسوته القديمة ، وطلبت منه أن ينهج نهج العدالة فى حكمه بين العباد ، وأن يعامل أهل هرر بالرفق ، وأن يسهر على رعاينهم ، عملا على زيادة النهضة العمرانية ، وتقدم البلدان .

وكان رءوف باشا قد لفت نظر مصر الى أنه مضطر للاحتفاظ بالأمير السابق ، وذكر أنه ينطوى على أمور غير لائقة . فعمدت مصر من ناحيتها على تقييد سلطة عبد الشكور ، بأن جعلته تحت رقابة سمع وبصر عبد الوهاب وهبى الذى كان مرءوسا لمحمد عبد الشكور فى

---

(١٦) شوقى عطا الله الجمل « الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ١٨٦٣—١٨٧٩ ص ٢٨٣ .

الظروف العادية ، ورئيسا له فى الظروف الطارئة لكونه نائبا للحكمدار العام • اذ كان عبد الوهاب من رجال الحكومة المصرية المعول عليهم وسبق له القيام بمهمات خاصة • وله دراية بالشئون العامة • وعهدت اليه بادارة كل جوانب حركة المدينة من ضبط وربط وادارة[١٧] •

وعلى العموم كان هؤلاء الحكام والمحافظين مسئولين مسئولية مباشرة أمام الحاكم العام المصرى الجنسية الذى كان يقوم بالمرور على كافة جهات الحكمدارية من وقت لآخر نظرا لاتساع أرجائها ، ليتفقد أحوال الرعية ، والوقوف على مدى تطبيق العدالة ، وفق الفرمانات الصادرة اليه من الخديو والتى كانت تصدر اليه من آن لآخر ، اذ تعتبر الفرمانات الخديوية توضيحا لسياسة الحكومة المصرية التى ستنتهجها فى هذه اللبدان • مثل نشر التعليم ، وتنشيط الحركة التجـارية ، وتحسين الانتاج الزراعى[١٨] • فالحكمدار العام هو الممثل الشخصى للخديو فى تلك البلاد ومسئول أمامه مسئولية مباشرة ، فهو همزة الوصل الحقيقية بين مصر وهرر •

حقيقة أن رءوف باشا ساوى بين المصريين والصـوماليين فى المزايا والحقوق والواجبات[١٩] وكان رءوف محبوبا لدى الأهـالى • وقد نزل من قلوبهم منزلة جعلتهم يلقبـونه « بالوالد » ، ودللت الفرمانا تالخديوية عامة ، أنها كانت صادقة العزم على النهـوض بتلك البلاد وأهلها ، وعلى سيادة القانون والعدل ، اذ اصطبغت تلك الفرمانات بالروح الاسلامى لأنها كانت تسير وفقا لاحكام الشريعة الاسلامية[٢٠] •

---

(١٧) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية ص ١٦٥ •

(١٨) عبد الله حسين : السودان القديم والجديد ص ص ١٤٢ــ١٤٩ •

(١٩) دفتر نمرة ٢٤١٤ دار حكمدارية هرر — ص ٨ رقم ٢٨ فى ١٨ رمضان ١٢٩٢ •

(٢٠) على ابراهيم عبده (د) مصر وأفريقية فى التاريخ الحديث ص ص ١١١ــ١١٢ •

وللدلالة على ذلك أن أول فرمان صدر من الخديوى اسماعيل بعد فتحه لهرر مباشرة ، استهله بشرح سياسة الحكومة المصرية تجاه الاقليم وأكد فيه أن المرجع فى الأحكام سيكون للشريعة المحمـدية التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأن الادارة المصرية ستعمل على سيادة العدل والانصاف ليستوى فى الحقـوق الأدانى والأشراف . والمعاملة بالتلطيف والاستحسان ، وان اختلفت الأديان ، وأعرب عن ابتهاجه لترحيب الأهالى بهذه الوحدة مع مصر . وأبلغهم أنهم أصبحوا كالمصريين تماما ، ويتمتعـون بكافة الحقوق والامتيـازات مثلهم . يتساوى الضعيف فى الحقوق والقوى ، والكل يسلك المنهج القويم السوى . ووعدت القاهرة بالعمل على نشر التعليم وازدهار الزراعة ، وتوسيع نطـاق التجارة والصناعة ، وحثت الأهالى على التعاون فى استخراج خيرات الأرض .

وعلى طاعة الله والرسول « وأولى الأمر » منهم[٢١] .

ولكى يكون هذا الفرمان بمثابة ميثـاق عمل يلتـزم به الراعى والرعية ، أقام رءوف باشا احتفالا عسكريا دعى اليه الأمير والقضاة والعلماء والتجار والأعيان ليقرأ عليهم هذا المرسوم حتى يصل الى مسامع الكل فيقفون على ما جاء به ، ولاعطائه أيضا الصفة الرسمية اللائقة بهذه المناسبة .

وفى الحال رؤى ترسيخا لمبدأ الشورى فى اقليم هرر أن يتكون مجلس الحكمدارية ، على ألا تقتصر العضوية فيه ، على علية القـوم من المحافظين والحكام فقط ، بل يمتد لتشمل دائرة اختصاصه عناصر أخرى ، وكان من بين أعضائه القضاة والعلماء والتجار والأعيان ، وبدأ المجلس بهذه الصورة أن تمثيله الشعبى كان واضحا وكانت وظيفته

---

(٢١) دفتر رقم ١٠ أوامر عربى — ص ٢٦ رقم ٢ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ .
شوقى عطا الله الجمـل (د) الوثائق التاريخية مرجع سـبق ذكره ص ٢٨١ .

النظـــر فى الدعاوى المتعلقة بالحـــكمدارية ســـواء أكانت شرعية أو سياسية[٢٢] .

وفى ظل الحياة الديمقراطية التى نعمت بها هرر أثنـــاء الادارة المصرية ، لم يستطع محمد بن عبد الشكور ، أن يتمشى مع روح العصر الجديد ، فتوقف عن مسايرة الركب الحضارى ، اذ عز عليه عدم تسلطه على الاقليم . كما عز عليه عدم موافقة مصر على احتفاظه بســـــلطة الادارة الفعلية الوراثية ، فضلا عما حرم منه من احتكارات كانت تدر عليه الأرباح الطائلة ، وظهر قصور تفكيره وتأخره عن متابعة الأحداث، وعدم قدرته على مسايرة التطور ، واصراره على مصلحته الشخصية ، ظهر ذلك فى تحريضه قبائل الجالا ، ودفعهم الى مهاجمة المصريين . مما اضطر رءوف باشا الى الخروج ومجابهة هذه الحركات ، فتقدم ابنه الحاج عبد الله ، بعد ذلك بطلب الأمان والاذن له بالحضور الى القاهرة. ورتبت له الحكومة المصرية معاشا ، ثم اختار زيلع مقاما له . وأوصت سلطات هرر بعد مالتعرض لأملاكه . وهكذا أصبح اقليم هرر تحت ادارة مدينة جديدة دون وجود طبقات تتحكم فى أمره .

وظهر أن الاقليم قد أخذ فى الاستجابة لتلك البذور الديمقراطية التى أخذ اخوانهم من أبناء شمال القارة يبذرونها بينهم .

وهذه الأنظمة الديمقراطية ، المشار اليها ، اســـتحدثتها الادارة المصرية الجديدة ، أثناء حكمها لهذه البلدان ، ومع ذلك فقد أبقيت على بعض الأنظمة التقليدية التى كانت شائعة بينها قبل التواجد المصرى ، مثل المجالس القبلية ، حيث أن القبيلة كانت تلعـــب دورا كبيرا فى مجريا تالأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد كانت هرر تتميز بروح فريدة ، اذ أن جميع قبائلها متحدة[٢٣] ، يسودهم روح

---

(٢٢) جلال يحيى (د) مصر الافريقية مرجع سبق ذكره ص ١٦٩ .
(٢٣) السيد يوسف نصر (د) جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر ص ص ١٢٧ــ١٣١ .

التضامن ، وهم بخلاف الوضع القبلى القائم فى السودان التى كان يسودها العداء ، وبذلك يمكن لأى مأمور من طرف الدولة الخديوية ، أن يتحد مع من يريد من القبائل ، ويجرى اشعاله حسب اللزوم ، أما كيفية حكم هرر ، فقد كان لكل لقبيلة مجلس مكون من مائة عضو ، ويحل هذا المجلس هو ورئيسه الذى كان يلقب « بالبوكو » كل عام • وكان يرأس تلك المجالس القبلية ، مجلس آخر له الهيمنة والسيطرة على شئون تلك المجالس ، وكان مكونا من ثلاثمائة عضو ، ويلقب رئيسه بالبوكو الكبير ، وقرارات هذا المجلس ملزمة بين جميع القبائل •

ولقد كانت الادارة المصرية فى هرر مستنيرة حقا ، وكان يقيم فيها نحو ١٥ ألف من المصرين من مدنيين وعسكرين ، تزوج عدد منهم من أهل المدينة واقتنوا أملاكا ، وبنوا بيوتا بأوامر الحكومة التى كانت تريد أن تعطى مثلاً للسكان ليتنافسوا فى الأخذ بأسباب العمران • ولقد اعترف الرحالة الأجانب بمآثر الادارة المصرية فى هرر • من ذلك ما كتبه الرحالة النمساوى (فيليب بولتشكة) الذى زار هرر أيام الادارة المصرية ووصف حالتها قبل الحكم المصرى ، وما أدخله المصريون من ضروب الاصلاح ، كتب يقول : « ان الوجود المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ، ونشروا التجارة ، وأمنوا السبل ، وبالجملة أحدثوا انقلابا خطيرا فى أحوال هرر ، وان الذى يعرف الشرق — ولا سيما البلاد الافريقية الخالية من أبسط مبادىء الثقافة — لا يسعه أن يقرر أن المدنية المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة •

ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس حردفوى كانت له فى مجموعة نتائج ثورية ، لا فى هرر فحسب ، بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقية الشرقية ، نتائج لا أظن أن احتلالا آخر وصل اليها فى افريقية » •

ومما يدل على عظمة الحكم المصرى وجلاله ، أن اتصف حكم عبد الشكور بالتعسف والجور والرجعية ، بالرغم أنه كان هرريا من أبناء البلاد ، فكان يمنع الأهالى من زراعة البن(٢٤) ويحتفظ بها احتكارا لنفسه ، خوفا من أن يغتنى الأهالى ويخرجون بالتالى على طاعته • كما كان يحتكر التجارة فى العاج وريش النعام ، وكانت عملته مغشوشة مضروبة فى هرر مدة أزمان مختلفة • وكلها نحاس ، على حد قول المصريين ، أى أن قيمتها الفعلية كانت أقل من القيمة النقدية التى كانت متداولة بها • وبلغ من تعسفه أنه كان يمنع نساء الشعب من لبس النعال ، والرجال من لبس أى شىء على رءوسهم • وكان يجلد كل من يتجاسر على تغطية رأسه ، ولو بالثوب التالف هو فيه لوقاية رأسه من حرارة الشمس أو من البرد • كما كان يمنع الأهالى من أكل الأرز ، وأكل التمر ويقول « أن هذا أكل الأمراء والسلاطين ومن أين لكم أن تتوصلوا لأكل طعامنا ، بل وكان يمنعهم من أكل أى غداء حلو ، وما هذا الا نتيجة جهله وتجبره وطغيانه على عباد الله »(٢٥) •

ولكن مجىء المصريين غير من هذه الأحوال ، اذ أنهم قضوا على احتكار زراعة البن • وعملوا على محاربة البدع والعمل على تقدم البلاد وأهلها « فأخذ الأهالى فى لبس تاج الاسلام ، وصاروا يدعون للدولة المصرية الاسلامية وأبنائها الكرام ، حيث خلصتهم مما كانوا فيه من الظلم والاحتقار » •

ولم يقل استعداد أهالى هذه المناطق للتقدم والرقى عن استعداد غيرهم من الشعوب • وعلى الرغم من قصر المدة التى خضعت فيها هرر وملحقاتها للادارة المصرية ، فقد عملت هذه الادارة على تعميرها واستتباب الأمن بها ، فأجرت الصلح بين القبائل المتنافرة ، وشعر الأهالى بأن هناك قوة تصون الأمن وتحفظ النظا موالأرواح والممتلكات•

---

(٢٤) على ابراهيم عبده (د) مصر وأفريقية ص ص ١١٠ — ١١١ •
(٢٥) جلال يحيى (د) مصر الافريقية ص ١٦١ •

ولقد استهل حكمدار عام هرر حكمه البلاد ، بأن طلب من الحكومة المصرية أن توفد له على جناح السرعة عددا كبيرا من المهندسين والبنائين والنجارين والموظفين والفلاحين المهرة •

لقد تضمن نظام الحكم المصرى فى هرر وملحقاتها فى هذه الفترة عدة مظاهر حضارية ، كانت على جانب كبير من اهمية ، وكان من بين هذه المظاهر ، انتشار الأمن فى ربوع البلاد • اذ أن أسس المدنية والعمران تتركز على أمرين :

الأول : حفظ الأرواح والأعراض والأموال (الامن العام) •

والثانى : توسيع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة •

ولما كان الأمن ضروريا لحماية أفراد المجتمع وممتلكاتهم من السلب والنهب ومن عبث الخارجين على القانون والسلطة ، فقد نشط اسماعيل فى حفظ واستقرار الأمن فى ممتلكاته الافريقية ، بقطع دابر الأشقياء والأشرار ووضعهم فى السجن ، وعزل الحكام المتهاونين فى تنفيذ بنود الأمن • وكان اهتمام اسماعيل بهرر بعد خضوعها للسيادة المصرية كبيرا[(٢٦)] •

اذ أن هرر التى كان سكانها من البدو ، يأتون اليها كل أسبوع ، وذلك ليعيشوا بين سكانها بعض الوقت • وكانوا يحصلون فى أثناء تلك المدة على بعض الكساوى (ثمانية أذرع من القماش) كنوع من الاحسانات أو الأتاوات الى جانب حصولهم على المأكل والمشرب والنقود • ولكن لما خضعت هرر للسيادة المصرية ، حرم هؤلاء من مجيئهم اليها ، فربما يرجع ذلك الى تخوف هؤلاء البدو من السلطة الجديدة ، فاضطروا الى مهاجمة المدينة ، فأمر اسماعيل حاكم هرر أن يجتذب هؤلاء البدو عن

---

(٢٦) دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ ملحقاتها فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ •

دفتر صادر معية عربى بدون نمرة ص ٣٤ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ •

طريق تجنيدهم فى الجيش ، بحيث لا يعطون سلاحا ، بل يسلحون بأسلحتهم التقليدية (الحراب والنيبال) حتى يمكن الاستفادة بهم فى حفظ الأمن وحتى لا يقومون بالسرقات ، كما أمر اسماعيل أيضا أن لا تقوم القوات النظامية بممارسة تدريباتها بالقرب من أماكن اقامتهم حتى لا يظنوا سوءا بالحكومة ، من أنها ستقوم بمهاجمتهم •

بالاضافة الى ما سبق ، فان اسماعيل أمر بتصفية الخلافات القائمة بين القبائل ، وذلك بارسال مندوبين من طرفه الى الجهات التى تحدث فيها خلافات ومنازعات قبلية • وقد أدت هذه السياسة بالتالى الى استتباب الأمن ، ونشر الطمأنينة بين السكان ، وأدت أيضا الى رواج التجارة وازدهار الزراعة • اذ حرصت الادارة المصرية دائما على مراعاة مصالح السكان • وقد وجدنا عدة تعليمات للعساكر المصريين توصيهم بحسن معاملة الأهالى ، بل كانت تعليمات الحكومة المصرية دائما للقائمين بالأمر فى هذه الجهات تقضى بأن يعاملوا السكان بالعطف والحسنى ، وألا يلجأوا الى الشدة الا للضرورة القصوى • وقد أدى ذلك فعلا الى التآلف بين الأهالى والمصريين حتى أن رءوف باشا ذكر فى أكثر من تقرير له أن كل واحد من الأهالى كان يعتبر نفسه سعيد الحظ ، اذا ظفر بتزويج احدى بناته لجندى من الجنود المصريين(٢٧) •

والأكثر من ذلك حينما نمى الى علم الحكمدار العام عن رغبة جنده فى شراء حاجياتهم خارج نطاق المدينة المعسكرين بها ، جاءتهم التعليمات المشددة فى الحال ، بضرورة عدم شراء شىء من خارج البلدة ، والزامهم بشراء مستلزماتهم من السوق المعدة لذلك بالمدينة • وكذلك التنبيه عليهم بعدم اغتصاب بيع أو شراء من الباعة ، كما هى

---

(٢٧) دفتر نمرة ١٠ أوامر عربى ص ص ٣٣–٣٤ نمرة ٥ فى ٩ ربيع أول ١٢٩٣ هـ •

القوانين السياسية • ومن يخالف هذه التعليمات سيجازى أشـــد الجزاء ، مع توصيتهم بضرورة معاملة الأهالى باللطف والحسنى ، حتى تنجذب قلوبهم الى حب العساكر •

وفى نفس الوقت ، اهتمت الحكومة العامة بقبائل الجالا المحبة للحرب ، وعملت على استمالتهم ، وبذر بذور الحضارة فيما بينهم • ووضع رءوف باشا مشروعا لادخال بعضهم فى الجندية ، اشباعا لنزعتهم الحربية ، والاستفادة من استعداداتهم الطبيعية ، فى خدمة القـانون العام • ورأى أن تحتفظ هذه القوى المحلية بأسلحتها التقليدية ، وأن تصرف لهم رواتب أو ترتب لهم كمية من الأقمشة والتموين ، علاوة على دفع رواتب لشيوخهم ورؤسائهم •

ت ولقد عنيت الحكومة المصرية بارسال عدد من الصنايعية لتشغيلهم فى الانشاءات العسكرية اللازمة مثل اقامة الثكنات فوق الجبل المسمى (حاكم) وفى الأشغال التى تقدم خدمات معاونة ، مثل الترزية والمكوجية وغيرهم[(٢٨)] •

وبلغ من خصائص الادارة المصرية فى هـذه البلدان أنها كانت حريصة فى أن تتحرى معرفة كل شيء بالتفصيل عن السكان فيما يتعلق بأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم ولغتهم وأعمـالهم من زراعة وتجارة أو رعى وكذلك عن مناخ هذه الجهات •

لا شك فى أن اهتمام الحكومة المصرية بمعرفة عوايد السـكان وأخلاقهم ومصادر رزقهم وخلافه من البيانات المطلـوبة لتراعى فى معاملتهم كل دقة • ومما يدل أيضا على أن الادارة المصرية بلغت فى ذلك الوقت من التقدم درجة لم تصل اليها أرقى الادارات الأوربية ، وأن

---

(٢٨) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القـرن التاسع عشر ص ص ١٦٧ــ١٧٠ •

المصريين لم يهدفوا استغلال هذه البلاد وأهلها ، بل النهوض بهم وتهذيب أحوالهم مع المحافظة على الصالح من عاداتهم •

وهكذا سادت العدالة هذه البلاد فى ظل الادارة المصرية والتى كانت لا تدخر وسعا فى انزال أقسى العقاب بالجند والعسكر المصريين اذا أخلوا بواجبا توظيفتهم ، فمثلا اذا تعدى أحد العسكر ، ودخل بستانا لأحد الأهالى ، وقطع منه فرع شجرة واحد سواء أكان نافعا أو غير نافع وضبط — فانه كان يقطع من ماهيته شهر واحد ، ويعوض صاحب البستان فيما جرى له من اتلاف • وكان ينبه على الجند بعدم تعديهم على بساتين الأهالى •

يدل ذلك على مدى حرص الادارة المصرية بهذه الجهات ، على ألا يصيب السكان أى ضرر أو ظلم ، وكما سبق أن ذكرنا كانت الادارة المصرية تحرص على أن تسود الألفة والمحبة بين السكان والجنود المصريين(٢٩) •

وبناء عليه لما أقدمت الادارة المصرية على الانسحاب من هرر تقدم الأعيان والعلماء والأهالى والتجار الوطنيين بهرر ، بعريضة الى حكمدار عموم هرر ، معبرين فيها عن حزنهم العميق حينما بلغتهم من اشاعات عن عزم الحكومة اخلاء هذه البلدة وملحقاتها وذكروا : « أننا نعرض لفخامة عطوفتكم — بأنه لو حصل ذلك يكون سببا لاراقة الدماء ، وعدم وجود الأمن فى الأرواح والأموال • وذلك لعدم وجود المنصف الذى يأخذ حق الضعيف من القوى • وفى الأزمان السالفة بقيت هذه البلاد نحو خمسين سنة لغاية استيلاء الحكومة المصرية عليها ، على يد أعداء فى حالة من التوحش ولم يكن ينقطع منها سفك الدماء ولا السلب والنهب ولم يكن أحد يستطيع الوصول اليها من الجهات المتمدنة • حتى أن المولى سبحانه وتعالى من علينا بالحكومة الخديوية فكانت سببا فى

---

(٢٩) دفتر صادر معية عربى بدون نمرة ص ٣٤ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ •

انتظام أحوالنــا حتى صرنا فى عصرنا نأمن على أرواحنــا وأموالنا وعيالنا ، وانقطع النهب والسلب وازهاق ارواح ، وانتظمت لنا الحالة ، وصارت هذه المدينة مركزا تجاريا يهرع اليه التجار من كافة الأقطــار فزدنا التشكر لمولانا الكريم على ذلك . وكنا على الدوام ولم نزل نرفع الدعوات الصالحة لولى نعمتنا الخديو الأفخم ولأنجاله الكرام ، ورجال دولته بدوام العز والنصر والتأييد . ولما بلغنا هذه الاشاعات صرنا فى غاية من الأسف ، وحزنا فى أمرنا وما سيطرأ علينا ، ونفزع مما نتوقع حصوله فى المستقبل من أعدام أرواحنا وعيالنا وسلب متاعنا ، وخراب هذه المدينة وهدمها بالكلية . وعلى ذلك لا يكون لنا ملجأ سوى أن نلجأ للحكومة الخديوية التى كانت السبب فى نظام بلادنا منذ تسع سنوات من مدة استيلائها عليها .

فلا يمكن أن تتركنا هباء منثورا لأنه لو تحقق هذا الأمر ، تكون الحكومة هى المتسببة فى اهراق دمائنا واعدامنا بالكلية .

بناء عليه فقد تجاسرنا بالعرض لننظر فيما يتسبب حفظ أرواحنا ومتاعنا ، وأملاكنا وأعراضنا طالبين عدل الحكومة ، واحسانا من عدالة ولى نعمتنا الخديو الأعظم التكرم علينا بما يطمئننا فى هذه المسألة المعكرة ، والا فستكون مضطرين للمهاجرة ضمن العساكر للاقطــار المصرية . وأن عدل الحكومة السنية ، يمنحنا ما نحتاجه لمعيشتنا حيث أننا سنترك أموالنا وأملاكنا التى ورثناها من آبائنا ، وأجدادنا » .

كما تقدم الأوربيون والأجانب المقيمون فى البلاد بعريضة هم الآخرون ، عندما وصل الى مسامعهم نبأ اخلاء المصريين لهرر . ولقد فاضت هذه العريضة هى الأخرى بالحسرة والأسى الكبير ، نظرا لما يلحق تجارتهم ويصيب ممتلكاتهم من أضرار بالغة عند مغادرة الحــكومة المصرية لتلك الجهات .

لا شك فى أن هذه العرائض المتقدمة من التجــار الأجانب ومن

العلماء والأهالى والتجار الوطنيين ، فى الوقت الذى تأكدت أخبار اخلاء الحكومة المصرية لهذه الجهات ، تدل دلالة واضحة على مدى ادراك هؤلاء القوم لحقيقة الأمر • بعكس هؤلاء الذين ضغطوا على الحكومة المصرية لاخلاء جهات آمنة مستقرة دون سبب قوى يبرر أخلاءها • فقد كان الوضع فيها يغاير الحالة فى سائر جهات السودان الأخرى • ويصف لنا رضوان باشا حالة البلاد والأسى الذى عم الجميع أثناء اخلاء الادارة المصرية[٣٠] •

ثانيا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى هرر وملحقاتها فى ظل الادارة المصرية :

قام المصريون بحركة اصلاح واسعة النطاق وعملوا على رفع مستوى أهل هرر الاقتصادى فعنوا بالزراعة وعلى رأس المحاصيل الزراعية التى حظيت بها هرر فى ظل السيادة المصرية هو توسيع الرقعة الزراعية بنا وكان هذا بمثابة ثورة فى الحياة الاقتصادية • اذ أن السياسة الزراعية للبن كانت قائمة على فلسفة احتكارية قاصرة على أمراء هرر فقط ، لا ينازعهم فيها أحد • وكانت تلك الفلسفة مردها ، أنه لو عمت زراعة البن ، فان هذا يؤدى الى القضاء على تراكمات الثروة التى يتمتع بها حفنة قليلة ، واذا ما شاع الغنى بين الأهالى نتيجة اقدامهم على زراعة البن ، فانه يخشى من خروجهم على حد الطاعة[٣١] •

ومن هذا المنطلق حرم أمراء هرر على الأهالى زراعة البن ولذلك كان أول عمل بادرت فيه الادارة المصرية هو السماح للاهالى والعربان بزراعة البن ، واعطائهم رخصا لمزاولة زراعته ، وأخذت الادارةالجديدة

(٣٠) شوقى عطا اله الجمل (د) الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٣٢٨ •
(٣١) السيد يوسف نصر (د) الوجود المصرى فى أفريقيا فى الفترة من ١٨٢٠—١٨٩٩ م ص ص ١٥٧—١٩٤ •

تقيد هذا الاعلان مرات أخرى ، حتى يتعود الأهالى على سماعه ، ويتعرفون على مدى الفوائد التى ستعم عليهم ، وقام رجال الادارة المصرية بعمل دعاية واسعة للسياسة الزراعية الجديدة التى قضت على أسلوب الاحتكار .وأخذت فى ترغيب وتشويق الأهالى على الاستجابة لزراعة البن حتى تشيع الرفاهية بين عدد كبير من الأهالى ، وأعربت الحكومة المصرية عن استعدادها فى احضار أهل الخبرة فى زراعة المحصول من المرشدين الزراعيين الذين لهم المام ومعرفة بتحسين زراعته . ويعلمون الأهالى أحدث الأساليب وأنجحها ، وبذلت الادارة المصرية قصارى جهدها لترغيب السكان فى زراعة البن . بل بلغ الأمر بالحكومة المصرية أن أعلنت عن رغبتها فى احضار خبراء من الهند لارشاد السكان لأنجع الطرق لزراعته ، وللوقوف على مدى استجابة الأهالى واقبالهم على زراعة البن ، صدرت الأوامر من الخديو اسماعيل الى حكمدار عام هرر ، بأن يقوم بنفسه بالمرور على جميع جهات الحكمدارية للعمل على حث القبائل على الزراعة وخاصة البن ، وتلاحظ لرءوف باشا أثناء تفقده لتلك البلاد أن كل قبيلة تزرع نصف الأرض وتترك النصف الآخر الأكثر جودة والذى تغزر به المياه دون زراعة ، مما جعله يفكر فى الحال فى استزراع تلك الأراضى المتروكة والمهملة باعادة توزيعها ، فأنشأ ٢٥٠ بلدة زراعية وأعطى لكل عمدة من عمد تلك البلاد ألف فدان . وأعطى شيخ البلد خمسمائة فدان وذلك من الأراضى المتروكة دون زراعة . وأخذ رءوف يرغب الأهالى فى زراعة البن ، وبين لهم أنه لا يمكن ترك الأرض دون زراعة ، وبالفعل بدأت أغلب القبائل فى زراعة البن[٣٢] .

وباقبال الأهالى على زراعة البن ، أصبحت هرر صاحبة ايراد عظيم من هذا المحصول ، بعد ثلاث سنوات . وبالفعل جادت هرر بزراعة البن الممتاز على نطاق واسع جدا ، وصدر الى الخارج بكميات

---

(٣٢) اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٦٤ .
دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ وملحقاتها فى ١٢ شوال ٩٢ .

كبيرة ، وذاع صيته فى تلك الأسواق الخارجية ، وعلى الأخص فى عدن وأخذت تنافس البن اليمنى ، وأصبح تجار عدن والأوربيون يرجحون البن الهررى ، ويشترونه بأثمان غالية عن ثمن البن اليمنى •

لم يقتصر اهتمام حكومة مصر على الاهتمام بمحصول البن ، بل انها جلبت تقاوى المزروعات من مصر ، وعمم المصريون فى هرر زراعة الكروم واللوز والخوخ والليمون والبرتقال والمشمش والموز والقمح وقصب السكر والبطاطس والقرع والبنجر الشمام والبطيخ والخيار وغير ذلك من الخضراوات والفاكهة التى كانت نادرة الوجود أو لم تكن موجودة بها قط •

أما الصناعات فى هرر فكانت قليلة الانتشار ، ولم يكن بها الا خراط واحد حضرمى الأصل وجملة حدادين • فأخذت الادارة المصرية الصوماليين على مختلف الصناعات على أيدى النجارين والحداوين تعنى بالصناعات المحلية وتعمل على انتشارها ودربت عددا من والخياطين والسروجية الذين كانوا مرافقين للحملة المصرية • كما أنها رغبت الأهالى فى تعليم الصناعات بشتى الطرق • ولترغيبهم فى صناعة الأقمشة كان الحاكم وكبار الموظفين من المصريين يلبسون ملابس مصنوعة فى المدينة ليقتدى بهم السكان فيقتنوا ملابس مفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التى كانوا يتلفعون بها[٣٣] •

وكانت هرر بلد تجارية هامة لموقعها الجغرافى ، وكانت بربرة الميناء الطبيعى لها وللاقاليم المجاورة وكان أهالى زيلع وبربرة والحضرميون يشترون بعض الحرير المختص بلبس الأمراء وأجناس الخزر وبرادة النحاس والأرز الهندى والسكر والشاى والبلح والأقمشة القطنية من بلاد العرب ويبيعونها فى هرر ويشترون منها كثيرا من البن الجيد والجلود المدبوغة وغير المدبوغة • وكذلك يشترون منها بضائع مما يرد اليها من

---

(٣٣) محفظة ٣ عابدين وارد معية رقم ٤ فى ٣ محرم ١٢٩٣ •

خارجها كجلد النمر وريش النعام وسن الفيل والتبغ والمسلى ، وعسل النحل ، ويرسون كل هذه البضائع الى الجهات المختلفة فيكون لهم مكسب عظيم .

ولكن التعامل ، قبل السيادة المصرية على هرر ، كان يتم بطريق المقايضة ، لأن العملة كانت قليلة الاستعمال ، كما أن عدم توفر الأمن كان من شأنه شل الحركة الاجتماعية والاقتصادية . فان القوافل الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب الفادحة لأمير هرر والقبائل التى تمر بها ، وكان تجار الخارج هدفا لقبائل الساحل التى كانت ترغم كلا منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى (القبان) كان يقاسمه ربحه نظير حمايته له . وكانت البضائع أحيانا ، بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل فى خمسة عشر يوما تقطع الطريق فى عام ونصف أو عامين .

ونتج عن ذلك أن أصبحت هرر مدينة محصنة مقفولة تحيط بها الأسوار من كل جانب لتحمى نفسها من خطر المغيرين عليها ، وكان لها خمسة بوابات لتتحكم فى التجارة الواردة والخارجة منها .

ولم يستطع أجنبى أن يطأ أرض هرر ، فلم يدخلها أوربى سوى الرحالة رينتشارد بيرتون عام ١٨٥٤ بعد أن تزى بالزى العربى وأقام بين أهلها عشرة أيام[٣٤] .

ومما ساعد على نمو الحركة التجارية فى هرر ، ما استحدثته الادارة المصرية من أنظمة مالية بشأن العملة المستخدمة ، اذ رغبت الادارة الجديدة فى احلال العملة المصرية ، محل العملة القديمة المغشوشة ، اذ أصدر رءوف باشا أمرا بابطال عملة الأمير ، واحلال العملة المصرية محلها ، وأرسل عينة من عملة هرر القديمة لمصر لتحليلها ومعرفة مقدار الفضة فيها تمهيدا لشرائها من الأهالى .

---

(34) Encyclopedia Britannica. vol. 10. p. 139.

ورأت مصر الأخذ بسياسة استبدال العملة بالتدريج حتى لا تقف حركة البيع والشراء ، وأخذت فى ارسال كميات من العملة المصرية الى هرر لكى تحل محل العملة القديمة ، وصار استعمال العملة القديمة بقيمتها التى ظهرت من فحصها باعتبار أن الريال الواحد يساوى ٣٢١ محلقا[٣٥] .

واستصوب رءوف باشا جعل التجارة مع الأهالى ، والاكتفاء بالضرائب التى يدفعونها ، على أن يتم ذلك على أساس النصف بالمبادلة، والنصف الآخر بالشراء العملة ، خصوصا وأن الأهالى كانوا غير معتادين على التعامل بالنقود ، ولكن الحكومة وجدت أن هذا الأمر قد ينشأ عنه بعض الارتباك ويتطلب اقامة المخازن فى الأقاليم ، فقررت أن تجعل تجارة البن فى يدها وحدها ، تقوم بشرائه من الأهالى بعد أن شجعت الجميع على زراعته ، وتشتريه بالعملة ، توحيدا للتجارة مع الخارج ، وتعويدا للاهالى على استخدام العملة ، أما الضرائب المحلية التى قد تفرض على المواشى والأغنام والمحصولات ، فان مصر قد خشيت من استحداث نظم جديدة فيها مما قد يترتب عليه معارضة من جانب الأهالى . فأوصت الحاكم العام بعدم تقرير أى زيادة مفاجئة على عوائدهم السابقة . وبأن يحصل الايرادات بنفس الطريقة التى سارت عليها الحكومة السابقة ومع الاستمرار فى ذلك مدة حتى يألفوا الادارة الجديدة ونظمها شيئا فشيئا .

وبعثت مصر بالكتاب والحساب وبصراف لمنطقة هرر وبربرة ومأمور للوزن ومكاييل وموازين لضبط عملية البيع والشراء .

ولما كان أهالى هرر يحصلون على المياه الضرورية لهم من الغدران البعيدة عن المدينة ، حفرت الادارة المصرية قناة لجلب المياه الى داخلها حتى توفر على أهاليها المشقة والجهد . اذ كانت مياه الشرب قبلئذ قاصرة على تسع عيون منها أربع فى الجانب البحرى ، وخمس فى

---

(٣٥) دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٢٣ رقم ١ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ .

الجهة القبلية ، وكان أبعدها عن هرر يوجد على مسافة ستة آلاف متر ، وكان أقربها الى هرر يوجد على بعد ألفى متر[٣٦] •

وكان متوسط عمق هذه العيون يبلغ حوالى أربعين سم ويتراوح عرض العين منها من أربعة الى ثمانية أمتار •

وقد شيدت الادارة المصرية ١٠٢ منزلا بالاضافة الى عدد من الدكاكين ، ومبنى ديوان المحافظة • وقد زينت بالحدائق العامة الجميلة ، وأنشىء بها أيضا طاحونة لطحن الغلال بدلا من استخدام الرحى • وقد اشترك فى بنائها عمال مصريون • وكان هؤلاء العمال قد قاموا بتعليم أبناء هرر كيفية تشغيل هذه الطاحونة وأنشىء بها أيضا مسجد ليؤدى فيه الناس الشعائر الدينية • ولقد نال التعليم فى هرر اهتمام الخديو اسماعيل • ففى عام ١٨٧٦ طلب اللواء محمد نادى من سيادته أن يوافق على انشاء مدرسة فى هرر وذلك لتعليم أبنائها القراءة والكتابة واستند اللواء نادى فى ذلك على النقاط التالية :

١ — وجود مكان واسع فى هرر ، يصلح لأن يكون مدرسة •

٢ — تتعهد المديرية بانشاء الكراسى والأرائك اللازمة للتلاميذ وذلك لوفرة الأخشاب •

٣ — تتكفل الحكومة المصرية بتكملة التعليم لهؤلاء التلاميذ فى مصر ، بعد انتهائهم من دراسة المرحلة الابتدائية فى مدرسة هرر •

٤ — يصرف كل تلميذ كل أسبوع قرشا واحدا ونصف مرتب جهادى ، بالاضافة الى منحه فى كل سنة طاقيتين وطربوش وجلابية متوسطة الطول ، ومحاط أسفلها وياقتها بدائر حمراء وسروال شبيه بالبنطلون •

(36) Encyclopedia Britanica. op. cit., p. 138.

٥ ــ تقوم المدرسة بتدريس علم الزراعة والخط والحساب والقرآن الكريم والعقائد الدينية • ويتم ذلك بواسطة المدرسين الذين يعينهم ديوان المعارف •

٦ ــ بلغ عدد تلاميذ المدرسة مائتى تلميذ[٣٧] •

وعموما كان محمد نادى باشا حاكما متازا وفى عهده عين أحد بك وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش فنجح فى ادخال قبائل كثيرة فى حوزة الحكومة • ولقد زار الرحالة الايطالى « أنطوان سيكى » هرر فى أيام نادى باشا (١٨٨١) فلاحظ رفاهية المدينة وتبين له « أن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية • وأن المصريين تبدو سمات الفاتحين الرافعين لواء الحضارة • اذ يعلمون الأطفال القراءة والكتابة والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر انسان أن الطريقة التى يتعهدون الأمن فى المدينة وضواحيها جديرة بكل اعجاب ومن التحسينات الكبيرة التى أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح ــ على الضد من نظام الأمراء السابقين ــ يقضى بالعدل من غير هوادة ولا ابطاء »[٣٨] •

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر ١٨٨٢ ــ أكتوبر ١٨٨٤) واليه يرجع الفضل فى مطاردة المتطببين والمشعوذين•

وقد كتب على الحكم المصرى ألا يدوم طويلا اذ بينما كانت مصر مجدة فى بث حضارتها أرغمتها انجلترا على اخلاء هرر وبربرة وزيلع ١٨٨٤ • فاستولت هى على الساحل ومنية أمام عدن[٣٩] واحتلت الحبشة هرر فى ١٨٨٧ •

وليس فى مقدور الحبشة ولا فى مقدور أية دولة أوربية أن تفعل

---

(٣٧) محفظة فى مجلس الوزراء السودان ١٨٧٦ •
(٣٨) محمد صبرى (د) مصر فى افريقية الشرقية هرر وزيلع وبربرة ص ص ٦٧ــ٦٨ •
(٣٩) محمد صبرى (د) نفس المرجع السابق ص ٦٨ •

ما فعلته مصر فى هرر • وليس أدل على ذلك من قول بوريللى الايطالى الذى كان يعيش فى هرر مدة عشرة سنوات • فعاصر عهـد الادارة المصرية وعهد الحبشة فى هرر : فقد ذكر « ان اللحم قد اختفى من السوق ، وأن هذه الفوضى الحبشية ستنتهى حتما فى يوم من الأيام ، ولكن الموقف سيظل لا يطاق والى أن تنتهى الأزمة سأترك هذه المدينة البائسة التى حولها الأمهريون الى حفر للقاذورات »(٤٠) •

كما شهد بذلك أيضا رجل فرنسى يدعى شارل ميشيل كان أحـد أعضاء بعثة بونشامب Bonchamp التى زارت هرر عام ١٨٩٧ ، أى بعد مرور اثنتى عشر سنة على خروج المصريين منها اذ يقول « لقد عادت الفوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضاع الأمن التى عانت منه المدينة قبل مجىء المصريين ، وأغلقت أسواق المدينة وهرب التجار الى الريف القصى(٤١) •

وهكذا يتبين لنا أن هرر وملحقاتها قد شهدت تحولا اجتماعيا واقتصاديا هائلا نعم به الأهالى فى ظل الادارة المصرية •

---

(٤٠) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، الجزء الثـانى ص ١٢٥ .
(٤١) عبد المنعم عبد الحليم : الجمهورية الصومالية ص ٤١٧ .